الأدب فى سير أعلامه :

ملـــتن ...

[الفيثارة الخالدة التى غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٧ —

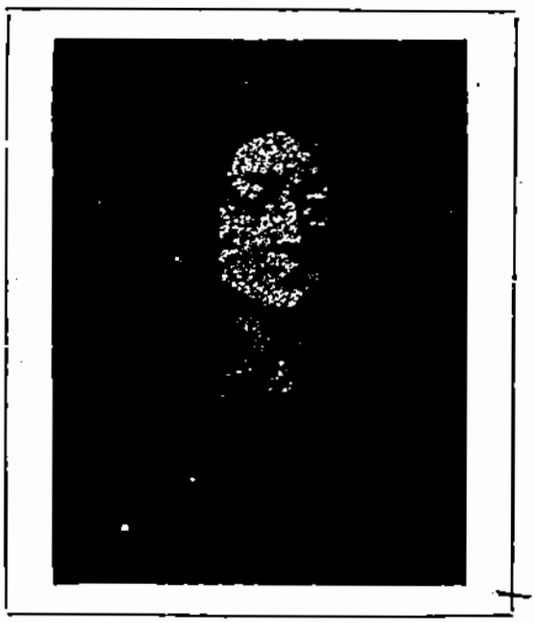

فى هورتون :

على مسافة سبعة عشر ميلا من لندن كانت تقع قرية هورتون الصغيرة الجميلة ، حيث اشترى الموثق جون ملتن بعض الأرض وأقام بيتاً ليأوى إليه إذا اعتزل العمل وجنح للراحة .

وكانت هورتون قرية هادئة تحيط بهـا المروج والمراعى ، والحقول بين ضيقة محصورة وواسعة منبسطة ، والغابات والخمائل عن يمين وشمال ، تتراءى بينها على بعد أبراج وندسور ، تلك القلعة العـالية القديمة ، فيتألف من مجموعها مجتلى ساحر جميل تستريح النفس لرآه ، ويسعه البصر من أوله إلى منتهاه .

واتخذ ملتن طريقه إلى هورتون ، تاركا وراء ظهره الـكلية ومن فيها من ثقلاء وظرفاء ، ومن أولى الغلظة والمنت من العرفاء ، ومن المتبجحين بالعلم من الأغبياء ، مبتعداً عن دروسها ومناظراتها ، وقد نفض قدميه من ثراها ويديه من كتبها .

وأوى الفتى إلى هورتون لا ليقضى بين ربوعها أياماً معدودات ثم يعود إلى لندن ، ولـكن ليقيم فيها سنين تطول أو تقصر حسبما يشاء ، فهو لا يتقيد فى مقامه بشىء !

وما ذا عسى أن يصنع ملتن فى تلك القرية ؟ وهل درس ما درس فى الجامعة وحصل على درجتين من درجاتها ليركن إلى البطالة والدعة فى ظلال الريف ؟ ليس هذا مما ألفه الناس ، ولا هو مما يجرى على سنن العقل ، وليس يقره عليه أحد ؛ بذلك كان يحدث الموثق نفسه ويحدثه أصحابه ، ويتناقله بينهم من يعرفونه من الناس !

ولـكن الشاعر لا يأبه لمـا يقولون ، فقد عقد العزم بادئ الرأى على رفض أية وظيفة فى الحـكومة ، كما رفض الالتحاق بالـكنيسة ، وإن كان قد درس اللاهوت ؛ وليس يعنيه أن يبين لهم وجهة نظره ، فأكبر الظن أنهم لن يقروه عليها ؛ وهل فيهم من يقره على إقامته فى الريف ، حيث تكون له عزلة يستريح فيها من ضجيج المدينة ولهوها وزحمتها ليتفرغ للقراءة والدرس ، فيستدرك ما فوتت عليه قراءته الـكلية من كتب ، ويستكمل ثقافته فى الأغريقية واللاتينية ، فهما عدته فيما يتهيأ له من رسالة ؟ وهو إنما يزداد شعوراً بأنه يتهيأ لرسالة ، وأن عليه أن يستزيد من المعرفة والحـكمة ليـكون أهلا لمـا يستشرف له .

ذلك كان مأربه من إقامته فى الريف ، فهمه فى الحياة أبعد من كسب القوت وأجل من ذلك شأناً ، وما يرى العلم والحـكمة بل والفضيلة نفسها إلا وسائل يتوسل بها إلى ما يبتغى من غاية ؛ وإنه لواثق أن الناس ينكرون عليه ذلك ، وأنهم يعدونه حلماً من الحلم يوسوس به الشباب فى صدر شاعر سحره عن نفسه ، وأذهله عن الصواب حب الشعر ... وما ذا عسى أن يقولوا غير ذلك وليس فيهم من يصدق أن الشعر مطلب ترصد له الحياة ، وغاية يحتقر فى سبيلها المال والجاه !

وكان أبوه يطمع أن يلتحق الفتى بالـكنيسة ، ولـكنه منذ صغره لا يحب أن يحمله على ما لا يريد ، فحسبه أن يمنى بذلك نفسه ، على أنه كان خليقاً أن يدرك بعد أمنيته من التحقيق ،

فهو أعلم الناس بابنه ، وأخبرهم بنوازعه وآرائه .

كانت صفات ملتن تحول بينه وبين الكنيسة ، فإباؤه ونزوعه إلى الحرية لا يسمحان أن يتقيد بقيد ، ورغبته فى التفرغ لقراءته والتهيؤ لرسالته يبتعدان به عن أن يشغل نفسه بغيرهما ؛ وإنه فضلا عن ذلك ليحس فى نفسه الكراهة لرجال الدين ، ويشمئز قلبه إذا ذكرت عقيدة روما الكاثوليكية ، فهى عنده علة التعصب وأصل تحكم القساوسة واستبدادهم وجمودهم ؛ وهو فتى يعشق الحرية الفكرية وحرية العمل ، ولا يستطيع أن يتصور كيف تخلو الحياة منهما وتسمى مع ذلك « حياة » ! ولا نجد ما يوضح رأيه فى رفض الالتحاق بالكنيسة خيراً مما كتبه بعد ذلك ببضع سنين عن الكنيسة وأشار فيه إلى ما نحن بصدده قال : « أما عن الكنيسة التى أزمع إعدادى لخدمتها منذ طفولتى حتى بلغت مرحلة من مراحل نضجى ، فإنى منذ رأيت مبلغ ما دخل فيها من طغيان ، وأن من يلتحق بها يجب أن يكون عبداً ، وأن يقسم على ذلك قسما ، وجدت خيراً لى أن أفضل الصمت الذى ليس فيه ما يعاب على الوظيفة الكلامية المقدسة التى تشترى بالقسم سلفاً ، وبالعبودية ، وتبدأ بهما ! »

ولم يكن ملتن حتى ذلك اليوم بيوريتانى المذهب ، وإن كانت عفته وطهره وترفعه عن الدنايا تمثل خلق البيوريتانية ، وإن لم يقصد ؛ أما عن مذهبه الدينى ، فكان حتى ذلك الوقت يتبع الكنيسة الإنجليزية الحرة ، دون أن يعنى بتحديد ما فيما يتعلق بقواعد مذهبها ؛ ولقد كان يكره من هذه الكنيسة ما كان يكرهه من كنيسة روما من التعصب لرأيها والرقابة على المذاهب الأخرى وعلى المطبوعات ؛ وأبغضت نفسه طريقة كبير أساقفتها (لود) فى تعقبه مخالفيه والتجسس عليهم ورفع أسمائهم إلى الملك ؛ ويعد ملتن فى هذا الاتجاه كذلك أقرب إلى البيوريتانية فى ناحية من نواحيها ، وإن لم يرم إلى ذلك .

وإن شخصاً هذه نظريته إلى الكنيسة ورجالها لحليق ألا يقبل مركزاً دينياً مهما منى أبوه نفسه أن يقبل ، ومهما ألح عليه أصحابه أن يفعل !

أما القانون ، وقد كانت لحرفة أبيه صلة به ، فقد فكر فيه عقب تركه الكلية ، ولكنه ما لبث أن انصرف عنه ؛ وأما الوظيفة الحكومية ، فلم تكن أحب إلى نفسه من الوظيفة الكنسية ، وما ترتاح نفسه فى الواقع ، ولا يتجه قلبه وعقله إلا إلى الشعر ، فلتكن له من عزلته فى هورتون فرصة أجل بها وأعظم من فرصة يتهيأ فيها لما يريد !

وعكف الفتى على محرابه فى هورتون ، فما يبرحها إلى لندن إلا لماماً ليشترى بعض الكتب ، أو يستمع إلى الموسيقى ، أو يستعين بمن يفهمه بعض مسائل الرياضة ، وألف حياة الريف واستروح نسيمه ، واستغرقت فى هدوئه نفسه ، واستمتع بصفائه حسه ، وتقلب فى مشاهده بصره فى بكره وآصاله وفى متوع نهاره ، وإذا كان غيره من الشعراء قد تغنى بحياة الريف ولم يره ، فلسوف يحيا ابن المدينة حياة الريف حقبة من عمره ، ثم يمسها مسة المبقرية فيغنيها ويصور مشاهدها ، ويضيف بذلك إلى أدب لغته وفنها ما تباهى به وتعتز !

كان يقضى كثيراً من ساعات نهاره بين كتبه ، وكان يقوم الليل كدأبه منذ سن العاشرة ، وقد قوى جلده على القراءة واشتد صبره ، ويعجب القيمون فى القرية من ذوى الثقافة من هذا الشاب الذى تخرج فى الجامعة ، ولا يزال يكب على الكتب ليله ونهاره كأنما هو مقبل على امتحان !

أما أهل القرية فانهم لم يألفوا أن يقيم بينهم إقامة متصلة شاب من هذا الطراز ؛ وقد ظنوا أول الأمر أنه لاغب يستجم ، أو زائر لن يلبث حتى يبرح القرية إلى حيث يكون مقام أمثاله فى المدينة ؛ وكانت ترمقه عيون فتيان القرية وصباياها فى إعجاب ومحبة ؛ فهم حيال شاب عليه فوق رونق الشباب وغضارته روعة الجمال وسيماء الوقار والاحتشام ، وإنهم ليحسون فى صوته عذوبة الموسيقى ، ويرون فى محياه إمارات النبل والأريحية والكرم ؛ وما يطمع القرويات منه فى أكثر من أن يرينه ويراهن ، وإن كان له فى كل قلب محبة ، وما عسى أن تنتظر صبايا القرية فوق ذلك من هذا الشاب الذى يتهامسن بأنه تخرج فى الجامعة وأنه من ذوى المجد ؟ على أنه فضلا عن ذلك كان فى شغل عنهن بعرائس شعره !

وإنه لأشد بالطبيعة ولوعا ، يقلب فى مشاهدها بصره ، ولكم يرى فى مجالى القرية مما يشرح صدره ويهز قلبه ؛ وكانت تعجبه الوجوه القرويات الوضاء لما توحيه سذاجتها من طهر ،

كما كان يطرب لأغانى الرعاة ويحس ما فيها من المانى والأخيلة والصور القروية ، التى يراها الآن تتصل بنفسه صلة قوية بتأثير بيئته الجديدة ؛ وتبعث تلك الأغانى ما كمن فى ذاكرته من أشعار أوفيد وألحان سبنسر مما يتصل بالحياة القروية فيرجع إليها ويعيد فى هذا الجو قراءتها فيستشعر من جمالها ويستبين من معانيها أكثر مما اتفق له من قبل ؛ وهكذا يعيش عيشة الريف ويقرأ أدب الريف ، فيكون لذلك أثره العميق فى خياله وحسه ، ولا يلبث أن تتضح صبغته فى فنه !

ولكن الوثن الشيخ وقد ركن إلى الراحة فى القرية لا يزال يأمل أن يراجع ابنه نفسه فيرضى بوظيفة من الوظائف ، فأنه ما يرى حياته هذه إلا ضربا من البطالة لا يسيغها عقله ولا يحبها لابنه ، ويدأب الرجل على الشكوى إلى جيرانه ويصل نبأ شكواه إلى ابنه فتكدر خاطره حينا ، لأنه يكره أن يغضب أباه ويكره فى الوقت نفسه أن ينصرف عما يتهيأ له من رسالة تهجس بها نفسه.

ويرد الفتى على أبيه بقصيدة لاتينية جميلة فيتوسل إليه أن يدعه فيما هو فيه ، ويرجو منه ألا يحتقر الشعر ويتساءل كيف يدهش أبوه وهو الموسيقى النابه من أن يكون ابنه شاعراً ؟ لقد قسم أبولو إله الموسيقى والشعر موهبته بين الأب وابنه ؛ والموسيقى والشعر صنوان ، والشعر أقوى مواهب الانسان دلالة على قداسة عنصره ؛ وإنما يتظاهر الأب بحسب بأنه يكره الشعر . ويحتقر الشاعر فى قصيدته الثراء والمادة مما يدل على أن أباه قد أشار إلى رغبته فى أن يعمل على كسبهما ويستطرد موجها الخطاب إلى أبيه فيقول : « يا أبت لقد عودتنى منذ الصغر أن أطلب المعرفة من أجل المعرفة فكيف تطلب إلىّ أن أحفل بالمال ، وأنت دون الناس جميعاً من لا يخلق ذلك به . يا أبت إن الوالد الذى لا يقتصر على أن يعلم ابنه اللاتينية فيعلمه معها الأغريقية والعبرية والفرنسية والطليانية والفلك وعلوم الطبيعة ، لا يسأله أن يجعل كسب المال غرضه من الحياة . يا أبت إنى اخترت ما هو خير بذلك وكان بوحيك ما اخترت . وإنى أعلم أنك تقر ذلك بقلبك وتشاطرنى الرأى فيه . وعلى هذا فما دمت أيها الوالد العزيز لا أستطيع أن أقابل جميلك بمثله ، فانى أرجو أن تكتفى منى بالاعتراف به وببقائه أبدا فى ذاكرتى ؛ وإذا كان لأشعارى الفنية أن تتطاول إلى الأمل فى الخلود ، فسوف يكون لى من اسمك موضع لشعرى » .

وأكبر الظن أنه قد أصلح بهذه القصيدة ما بينه وبين أبيه ، فلم يعد أبوه يشكو من إقامته فى هورتون ، ولعل الرجل إنما صالح نفسه على هذا الوضع إذ لم يجد لشكاياته من جدوى ، ولم يهتد فى إقناع ابنه إلى وسيلة .

وظفر ملتن بالهدوء فى عزلته الريفية الجميلة ، واتفق له جو شعرى ساحر ، ندر أن اتفق مثله لغيره من الشعراء فى مستهل عهدهم بالشعر ، فما نعلم منهم إلا من لقى أول أمره عنتا وضيقا كثيرين ، وإنهم ليبتلون بالعذاب من الحياة ومن أنفسهم ، وما كان لينعم ملتن بما نعم به لولا زكانة أبيه وسماحة طبعه وإدراكه قيمة الفن وإيمانه به .

ولكن عبئا آخر يهبط على الشاعر فى عزلته من صاحب لم يعرف اسمه ، فقد عثر فيما بعد بين أوراق ملتن فى تلك الحقبة على ورقتين بهما سطور من رسالة كان يرد بها على كتاب صاحبه ، وقد جاء فيه أنه لا يرضى لملتن أن يقضى سنى عمره حالما فى عزلته شأن أنديميون مع القمر بينما يمضى الزمن مسرعا . ورد ملتن بأنه يقضى أرب نفسه من الثقافة والمعرفة ليكون أرفع مما هو قدرا ، ولولا أنه يؤمن بهذا الذى يأخذ نفسه به فى غير رفق لما وقف مصمما فى وجه كثير من غرور الحياة كالطموح إلى المناصب والرغبة فى جمع المال ، والميل إلى البناء بزوجة وتكوين أسرة ، والإقامة فى مسكن خاص . ويرسل ملتن إلى صاحبه تلك القصيدة التى نظمها وهو فى الجامعة واستغل فيها ثمار جهوده ليدرأ بها عن نفسه تهمة التبطل والخمول .

وأقبل ملتن على القراءة إقبالا عظيما ؛ وكان أكثر همه منصرفا إلى الشعر فى أشهر آداب الأمم ، وعلى الأخص الأغريق والرومان ، واطلع إلى جانب ذلك على الأدب الفرنسى والأدب الإيطالى ، وقرأ الفلسفة القديمة وبخاصة أفلاطون ، وفلسفة العصور الوسطى كما قرأ التاريخ يستخرج منه الحكمة والعبرة ؛ وعنى بعصر شكسبير عنايته بعصر بركليس ، فكان أكثر وقته مخصصا لهما وأحب هوميروس وڤرجيل وأوفيد ودانتى حبا لا يضارعه إلا حبه لشكسبير وسبنسر ، وكان ولعه عظيما بما استحدث فى العصر

الأليزابيثى من صور البيان ، وما تولد فيه من مشرق اللفظ وبديعه ، وما افتنه المفتنون أثناءه من أساليب الوصف والغناء ؛ وأعانه على استيعاب ذلك سليقة فنية خالصة ، وروح إلى الفن وجماله متعطشة ، وعبقرية طامحة توحى إليه أن يجرى فى مضمار هؤلاء العباقرة الأفذاذ وألا يتخلف عنهم فى شىء .

أما عن أدب عصره فالأرجح أنه قليلا ما كان يتناول بعض آثار ذلك العصر ، لأنه قليل الإشارة إليها فيما كتب قليل التأثر بها ، ولعل مرد ذلك إلى أنه حصر ثقته فى الروائع السالفة من أدب العالم ، ولم يجد ما يكافئها إلا آثار شكسبير وأفذاذ عصره .

ولم يك يقرأ ملتن قراءة عجلان لا يقع على مطلب حتى يطير عنه إلى غيره ، وإنما كان يقرأ قراءة المتثبت المتقصى ، الذى يعمل فكره ويقدح ذهنه فى غير ملل أو نصب ؛ يتكىء على نفسه حتى ينفذ إلى أعماق ما يقرأ ، ولن يبرح ينشره ويطويه ويقلبه على أوجه الرأى جميعا حتى يطمئن إليه ، ويقضى فى أمره بالقبول أو بالرفض . ولقد عثر سنة ١٨٧٤ على كراسة من مخلفات ملتن بها ملاحظات واقتباسات من نحو ثمانين مؤلفا دونها أثناء قراءته ومنها يقف المرء على مثال لكدحه وصبره على عناء الدرس .

على هذا النحو قضى ملتن ست سنوات فى هورتون ؛ وما تظن أن شاعرا قبله أو بعده اتسع أفق ثقافته أكثر مما اتسع أفقه ، وما نظن أن أحدا من الناس شاعرا كان أو غير شاعر قد أعد نفسه لما يريد من أمر بما هو أقوى مما أعد به هذا الفتى للشعر نفسه

وكان يزور المدينة أحيانا فلا تغريه حياتها عما وطن عليه النفس من الجد ، وأقصى ما كان يقضيه فيها إذا حل بها بضعة أسابيع ، ولكن ذلك كان نادرا فان معظم إقاماته بها كانت لا تعدو بضعة أيام ؛ وكان فى المدينة يسعى إلى حيث يستمع الموسيقى ، كما كان يغشى المسارح ويزور علية القوم ، ويمتع ناظريه بما يرى من جمال الحياة ، ولكنه يملك زمام نفسه ، ويسيطر عليها سيطرة قوية تامة قل أن توافى مثلها لغيره فى سن كسنه ، فاذا قضى أرب مشاعره من الجمال ، وأرب جسده من الراحة ، واشترى ما تتطلب دراسته من كتب عاد إلى هورتون فأقبل على أوراقه وكتبه .

(يتبع) الخفيف

ألدوس هكسلي

(بقية المنشور على صفحة ٣٨٢)

من حقائق الصراع الانسانى إلى عزلة عالم الأفكار المبهمة . وأبحاثه الحاضرة فى التصوف والفلسفة الدينية تمثل عودة إلى تفضيله المتأصل هذا للحياة الباطنة ، هذا التفضيل الذى ظل كمينا زمنا ما إذا حكمنا بكتاباته اللاأدرية التى نشرها فى العقد الثالث من القرن العشرين ، وهو الزمن الذى تصادف أن كان زمن مادية وكلبية عامة فى إنكلترة .

وقد ظل هكسلى عدة سنوات تحت التأثير الشخصى الشديد للروائى د . هـ . لورنس ، مؤلف Sons and Lovers وغيرها من الروايات الفذة . وقد تقابلا أول مرة فى سنة ١٩١٥ ، ولكنهما لم يكثرا من رؤية أحدهما الآخر حتى السنوات من ١٩٢٦ إلى سنة وفاة لورنس . وقد كتب هكسلى فى سنة ١٩٢٧ قائلا : « إن لورنس من الأفراد القلائل الذين أشعر نحوهم بتقدير وإعجاب حقيق . فالأشخاص البارزون الآخرون الذين قابلتهم أشعر بأننى على أية حال أنتمى إلى نفس الجنس الذى ينتمون إليه . أما هذا الرجل فان به شيئا مختلفا ، وهو شىء أسمى فى النوع لا فى القدر » .

وفى سنة ١٩١٩ تزوج هكسلى بماريا نايز ، وهى بلجيكية ؛ وله ابن واحد . وقد قضى قسما كبيرا من حياته خارج إنكلترة ؛ عاش فى فرنسا وإيطاليا وقام بأسفار واسعة فى الهند وبورما (التى كتب عنها وصفا ممتعا فى Jesting Pilate سنة ١٩٢٦) ، وفى المكسيك وغواتمالا وهندوراس وجزائر الهند الغربية (اقرأ كتابه Beyond the Moxique Bay سنة ١٩٣٤) . وهو منذ قبيل الحرب التى وضعت اليوم أوزارها يعيش فى الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة فى كاليفورنيا .

وهكسلى فى مظهره إنكليزى صميم ، فهو طويل القامة رمادى العين ، وشعره الكثيف مرتب إلى الوراء من الجبهة . وهو ذو أدب جذاب ساحر . والمرء فى حضرته يلاحظ أولا صوته الجميل ويديه الطويلتين اللينتين ، وهو مشغوف بعقدهما حول ركبته حين يجلس ويتحدث . وبين آن وآخر يكتسى فمه بابتسامة هادئة تهكمية ، ولكنها فى العادة ذات مسحة حزينة .

(عن مجلة الأدب والفن الانجليزية) اسكندر هندرسون